حَوْلَ كيفيَّةِ الوَحْيِ ومراتِبِه

عُنِيَتْ السُّنَّةُ النبويةُ الشريفةُ بتوضيح كيفية الوحي، وبيان الصور والمراتب التي كانَ عليها..

منْ ذلكَ ما رواهُ الإمامُ البخاريُّ في صحيحه - بسنده المتصل عن عائشة - رضيَ اللهُ عنها - أنَّ الحارثَ بنَ هشَامٍ - رضي اللهُ عنهُ - سألَ رسولَ الله ﷺ فقالَ: يا رسول الله، كيفَ يأتيكَ الوحيُ؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثلَ صلصلة الجرس، وهو أشَدُّه عليَّ، فيفصمُ عنِّي، وقد وعيتُ عنهُ ما قالَ، وأحيانًا يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقولُ».

قالتْ عائشة رضيَ الله عنها: «ولقدْ رأيتُهُ ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيفصمُ عنهُ وإن جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا».

وليستْ ظاهرةُ الوحي محصورةً في هاتين الحالتين: مثل صلصلة الجرس، وتَمثُّلِ الملَك رجلاً، وإنَّما هناك حالاتٌ أخرَى زائدةٌ علَى ذلكَ، فمنْ حالاتِ صفة الوحي: مجيئُه كدويِّ النحل، والنفثُ في الرُّوع، والإلهامُ، والرُّؤيا الصالحة، والتكليمُ صراحةً ليلةَ الإسراء بلا واسطة.

وعلَى هذَا فلا يُرادُ بالحالتين المذكورتين في الحديث حصرُ الوحي فيهما وأنهمَا تُحملان على الغالب، أو أنَّ سواهمَا من الحالات قد وقعَ بعدَ السؤال.

وقدْ دلَّ القرآنُ الكريمُ علَى أهمِّ وأظهر حالات الوحي، وهيَ الحالاتُ التي عَزا إليهَا العلماءُ الحالات الأخرَى. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

وقدْ ذكَرَ ابنُ القَيِّم - رَحمَهُ اللهُ - مراتبَ الوحي فأوصلَها إلى سبعِ مراتبَ:

الأولَى: الرؤيا الصالحةُ وكانَ مبدأَ وحيه ﷺ، وكانَ لا يرَى رؤيَا إلا جاءتْ مثلَ فَلَق الصبح.

الثانيةُ: ما كانَ يُلقيه الملَكُ في رُوعه وقلبه، منْ غير أن يراهُ كَما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعي أنَّه لنْ تموتَ نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقها. فاتقُوا اللهَ وأجملُوا في

(١) سورة الشورى: ٥١.

الطلب ولا يحملنَّكُم استبطاءُ الرزق علَى أنْ تطلبوهُ بمعصية الله، فإنَّ مَا عندَ الله لا ينالُ إلا بطاعته».

الثالثةُ: أنهُ ﷺ كانَ يتمثَّلُ له الملَكُ رجلاً، فيخاطبُه حتى يعيَ عنهُ ما يقولُ لهُ، وفي هذه المرتبة كانَ يراهُ الصحابةُ أحيانًا.

الرابعة: أنه كانَ يأتيه مثلَ صلصلة الجرس، وكانَ أشدَّه عليه فيتلبَّسُ به الملَكُ حتَّى أنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى أنَّ راحلتَه لتبرُكُ به إلَى الأرض إذا كانَ راكبَها. ولقدْ جاءَهُ الوحيُ مرّةً كذلكَ وفَخذُهُ ﷺ على فخذ زيد بن ثابت فثقُلَتْ عليه حتى كادتْ تَرُضُّها.

الخامسةُ: أنه يرَى الملكَ في صورته التي خلقَهُ اللهُ عليهَا فيوحي إليه ما شاءَ اللهُ أن يوحيَهُ، وهذَا وقعَ له مرَّتين. كمَا ذكرَ اللهُ ذلكَ في سورة (النَّجْم).

السادسةُ: ما أوحاهُ اللهُ إليه وهو فوقَ السَّموات ليلةَ المعراج من فَرْض الصَّلاة وغيرها.

السابعةُ: كلامُ الله لهُ، منهُ إليه بلا واسطة مَلَك، كمَا كلَّم اللهُ

موسَى بن عمران عليه السلام. وهذه المرتبةُ ثابتةٌ لموسَى - عليه السلامُ - قطعًا بنصِّ القرآنِ، وثبوتها لنبيِّنا ﷺ في حديثِ الإسراءِ.

والصَّلْصَلةُ: صوتٌ ينبعثُ من وقُوعِ الحديد بعْضه علَى بعضٍ، ثمَّ أطلقَ علَى كلِّ صوتٍ له طنينٌ.

- والسؤالُ هنَا: كيفَ وقعَ تشبيهُ الوحي وهو محمودٌ - بصوت الجرس وهو مذمومٌ لصحةِ النهي عنهُ؟

وأجيبَ عنْ ذلكَ بأنَّه لا يلزمُ من التشبيهِ تساوي المشبَّه والمشبَّه به منْ جميع الوجوه، بلْ يكفي الاشتراكُ في صفة ما، فذكَرَ ما ألفهُ السامعونَ؛ تقريبًا للعقول، ثمَّ إنَّ للصوت قوةً وطنينًا، وقدْ وقعَ التشبيهُ به من حيثُ القوةُ لا منْ حيثُ الطربُ، فقدْ وقعَ التنفيرُ منهُ.

* ومعنَى (يُفصم) يقلعُ وينقطعُ وينجلِي ما يغشَاه. وأصلُ الفصمِ القطعُ.

* ومعنى قولِه ﷺ: «وقد وعيتُ عنهُ ما قالَ» أيْ فهمتُ القولَ الذي جاءَ به.

* والمرادُ بقوله: «وأحياناً يتمثَّلُ لي الملَكُ رجلاً» أيْ يتصوَّرُ. واللام في الملَك للعَهْد، وهو جبريلُ - عليه السلام -، وظهور الملَكُ في صورة رجلٍ لهُ أثرُهُ في المؤانسة للمخاطبِ.

* وقدْ جاءَ التعبيرُ متغايراً في الحالتين، ففي الأول قال: «وقدْ وعيتُ» بلفظ الماضي، وفي هذه الحالة الثانية قالَ: «فأعي» بلفظ الاستقبال؛ لأنَّ الوعيَ حصلَ في الأول قبلَ الفصم وفي الثاني حصلَ حالَ المكالمة. ويدلُّ قولُ السيدة عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا: «ولقدْ رأيتُهُ ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيفصمُ عنهُ وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا»، يدلُّ هذَا علَى أنَّه كانَ يعاني شدةَ نزول الوحي، لمَا فيه منْ مخالفة العادة، وهوَ كثرةُ العرق معَ شدة البرد، فإنَّ هذَا يدلُّ علَى أمرٍ طارئٍ شديدٍ علَى ما تحتملُه الطِّباعُ البشريةُ.

* * *

ولقدْ كانتْ عنايةُ الكتاب والسنَّة بظاهرة الوحْي عنايةً فائقةً تكشفُ

عن كيفية الوحي وأول بدئه، وما يصحبُ الوحيَ منْ سمات ومظاهرَ . . إلَى غير ذلكَ من الأمورِ .

ولَمَّا كانَ موضوعُ الوحيِ هوَ الموضوعَ الأولَ والأكبرَ للإسلام؛ فهوَ طريقُ وصول العقيدة والتشريعِ والأحكامِ والأخلاق، منْ أجلِ هذَا اتجهَ إليه محترفُو الغزو الفكريِّ، وصوبَ أعداءُ الإسلامِ سهامَهُم إليه محاولينَ التشكيكَ والتلبيسَ والخلطَ بينَه وبينَ الحديثِ النفسيِّ والإلهامِ، وما إلَى ذلكَ ممَّا خاضُوا فيه بتبجُّحٍ وتمحُّلٍ .

ولكنْ أنَّى لهمْ ذلكَ وظاهرة الوحي ثابتةٌ ثبوتًا واضحًا وقويًّا ومتواترًا، دلَّ عليهَا الكتابُ والسنَّةُ والإجماعُ مما يُفحمُ المنكرينَ والمكابرينَ والمعاندينَ .

وحاشَى النبيِّ ﷺ أن يكونَ قد أتَى بهذا القُرآن الكَريم ـ الذي تكفّلَ اللهُ بحفظه ـ من عنْد نَفسه . وهذَا واضحٌ تمامَ الوضوح في قوله تعالَى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

وفي قوله عَزَّ وجلَّ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1].

وقوله جلَّ شأنُهُ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2].

* * *

(١) سورة الحاقة: الآية ٤٤ - ٤٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

obeikandl.com